التعليم الشعبي في نابلس

بدأ العمل الميداني بالتعليم الشعبي في 2002/9/6، أي بعد حوالي أسبوع من الإعلان عـن فـتح المدارس في فلسطين. سبق ذلك نشاط ثقافي في إحدى العمارات القريبـة مـن جامعـة النجـاح الوطنية والمعروفة بعمارة النجاح حيث بدأ أساتذة جامعيون بإلقاء محاضرات عامة مفتوحة أمـام مختلف الأعمار. الأساتذة هم الدكتور عبد الستار قاسم، الدكتور نايف أبو خلف، الدكتور محمـود أبو الرب والدكتور فواز عقل. تركزت المحاضرات على القضية الفلسطينية وتطورها، وامتـدت لتشمل مواضيع اقتصادية وتربوية. والجدير بالذكر أم المحاضرات كانت تعطى في مدخل العمارة لأنه واسه ويشبه المدرج.

امتدت فكرة التثقيف إلى مسألة التدريس مع بداية العام الدراسي. تبين أن الاحتلال الصـهيوني لا ينوي رفع منع التجول المضروب على المدينة فأسرع الأساتذة بريادة الدكتور عبد الستار قاسـم إلى تشكيل لجنة في الحي للتحضير لإقامة مدرسة شعبية تقوم على تـدريس المهـاج الدراسـي الرسمي ما أمكن. تولت المسألة لجنة نسوية مكونة من أسماء عودة وإخلاص الرطروط وسـهير القاضي. بالتعاون مع الأهالي قامت اللجنة بإحصاء عدد الطلاب والطالبات في الحي وفي البحث عن أماكن للتدريس. خلال يومين، كانت الخطة جاهزة والأماكن متوفرة. ولم يبخل أي مـن ذوي الخبرات التدريسية رجالا ونساء بتقديم ما طلبته اللجنة.

بدأ التدريس صبيحة يوم السبت الموافق 2002/9/6 تحت منع التجول. لقد كان مشهدا جمـيلا أن نرى الأطفال والشباب يحمل كل منهم كرسيه وما تيسر من الكتب ويتوجه إلى غرفة الدرس التي قد تكون غرفة في بيت أو مخزن أو مرآب أو درج عمارة. لم يكن هناك أي تكاسل كما يحصـل عادة في اليوم الأول للدراسة وبدأ التدريس بجد. ذلك لأننا أردنا أن نعطي رسالة واضحة للجميع من الدارسين وغير الدارسين أن الأمر جدي وليس مجرد نشاط إعلامي. لم نكن نفكر في الإعلام حقيقة إلا من زاوية بث الفكرة لكي يتم تعميمها على مختلف أنحاء المدينة ونقلهـا إلـى المـدن الأخرى مثل طولكرم وجنين.

تم فتح أربعة عشر صف دراسي من الأول الابتدائي حتى التوجيهي بفرعيه الأدبـي والعلمـي. والمشكلة الأساسية التي واجهتنا هي توفير العدد المطلوب من المدرسين من داخل الحـي نفسـه. ولهذا طلبنا من كل من لديه خبرة سابقة أو متقاعد أو ممارس حاليا أن يتطوع. تطوع الكثيـرون لكم بقي النقص بالأخص في مادة اللغة العربية ذلك لأن ساعات التدريس الأسبوعية لهذه المـادة كثيرة وبحاجة إلى عدد كبير من المدرسين. طلبنا العون من الأحياء المجـاورة وجـرى تبـادل الخبرات.

بدأ اليوم الأول بحوالي مائتي طالب وطالبة في مختلف سنوات الدراسة من الأول ابتـدائي إلـى التوجيهي. ارتفع العدد في اليوم الثاني إلى حوالي مائتين وخمسين بسبب انضـمام أعـداد مـن الأحياء المجاورة. في اليوم الثالث، لم نعد قادرين على استيعاب الأعداد مما اضطرنا إلى تحفيـز الأحياء الأخرى لعمل مدارس شبيهة. لم تتأخر الأحياء وقامت بفتح مدارس، وخلال أسبوع كـان التدريس يعم المدينة.

ماذا عن دائرة التربية والتعليم؟ إنها لم تتعاون ورفضت فتح المباني المدرسـية أمـام المدرسـة الشعبية. الحجة أنها لا تريد أن تتحمل مسؤولية ما يمكن أن يقوم به الاحتلال من إجراءات.

التدريس الشعبي لا يغني عن المدارس الرسمية التي تتميز بأجواء خاصـة وبتـوفر المدرسـين الخبراء في مجالهم، وهو لا يهدف إلى أن يحل محل التدريس الرسمي. لكنه يهدف إلى:

1- وضع الطالب في حالة دراسة مع بداية العام الدراسي.
2- التغلب على الحالة النفسية التي يصنعها منع التجول والمتميزة بالضيق والتسـاؤل عـن مستقبل الدراسة. صحيح أن الطالب في الأيام العادية يفرح للعطـل والإجـازات إلا أن مشاعره تتبدل إذا شعر أن مستقبله الدراسي في خطر.
3- السير في المنهاج الأكاديمي بأفضل ما يمكن مما سيسهل على المدرسـين والمدرسـات مستقبلا السير بسلاسة في المنهاج.
4- تقوية الشعور بالمسؤولية لدى الأهالي والطلاب تجاه الجيل.

5- توثيق عرى التعاون ما بين الناس وتوجيه الجهود نحو ما هو مثمر. وبدل أن نندب حظنا بسبب منع التجول من المهم أن نصنع أشياء مثمرة تحد أو تخفف من آثار المنـع. وقـد ظهرت الحمية على وجوه الناس والبهجة. عدد كبير منهم استعدوا للتعاون وقدموا.

لكن للتدريس الشعبي ميزات كبيرة لا تتوفر لدى التدريس الرسمي:

1- عدد الطلاب في الصف قليل مما يمكن المدرس أو المدرسة من الانتباه إلى كـل طالـب وطالبة شخصيا. مستوى التعليم في الفصل المكون من عشر طلاب يختلف عن ذلك فـي الفصل المكون من خمسين.
2- يشعر الطلاب بمسؤولية كبيرة لأنهم يدركون أن المدرس متطوع وأن الأهالي يتطوعون ويتعبون من أجل انتظام نشاط من المفروض أنه مقدس. هنا تختفي تلـك الألاعيـب أن أعمال الاستهتار التي قد يمارسها الطلبة في المدرسة.
3- تتحرر المدرسة الشعبية من أجواء التوتر التي تفرضها قوانين التربية على المدرس ممـا يجعله عرضة للإهانة. يتكاتف الأهالي لردع أي طالب يحاول الإساءة للأستاذ، والطالـب الذي يرى أن التطاول من حقه له أن يختار عدم العودة إلى المدرسة إلا بتعهد وضـمان قوي من ولي أمره.

التدريس مختلط وهذا ما أدى إلى امتناع بعض الأهالي وهم قلة عن إرسال بناتهم على الرغم من أنهم أرسلوا أبناءهم الذكور.